www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صُورة عن التعليم والحالة العلمية في دمشق

آخر العهد المملوكي

من خلال وقفية الأمير سيباي والي دمشق
على المدرسة والزاوية والتربة التي أنشأها
بين سنتي 915–920 هجرية
1509 – 1514 ميلادي

بحث مقدَّم إلى مؤتمر: نحو مقاربة نظام التعليم في شرقي المتوسط
بين العصرين المملوكي والعثماني، القرنين الخامس عشر والثامن عشر
12 – 15/11/2008م طرابلس – لبنان

د. محمد مطيع الحافظ

كبير الباحثين بدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

باحثة أول

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يتضمن بحثنا هذا:

- مقدمة وفيها نظرة سريعة في الدراسات عن العصر المملوكي وخاصة التاريخ العلمي.

- ثم دراسة موجزة تاريخية عن المدارس بدمشق في تلك الفترة من حيث عددها ومناهجها.

- بعد ذلك يخصص البحث في دراسة وقفية الأمير سيباي و الي دمشق على مدرسته وما تضمنته من وقفيات ومناهج علمية.

- ثم استخلاص النتائج.

المقدمة: الباحث في التاريخ المملوكي يجد رغم كل الجهود المبذولة أنها تحتاج إلى مزيد من العناية، والتعمق والإحاطة بهذه الفترة، وخاصة من النواحي العلمية لمعرفة حقائق هذا العصر. والملاحظ أنه قد قام كثير من الباحثين بدراسة العصر المملوكي وخاصة في مصر التي كانت مركز الحكم للمماليك، ولا نجد العناية اللازمة الكافية لتاريخ بلاد الشام.

لقد ظهرت وحُققت مخطوطات كثيرة وقيّمة تهتم بتاريخ بلاد الشام السياسي والعلمي والاجتماعي، فظهرت مؤلفات النعيمي (ت927هـ/ 1521م) ويوسف بن عبد الهادي المقدسي (ت909هـ/ 1503م) وابن طولون الدمشقي (ت953هـ/1546م).

فصدر كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي وتاريخ الصالحية ومفاكهة الخلان (الذي هو يوميات سياسية واجتماعية وعلمية)، وإعلام الورى (وهو تاريخ لولاة دمشق في العصر المملوكي) لابن طولون، وثمار المقاصد في ذكر المساجد وغيره ليوسف بن عبد الهادي المقدسي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

استولى المماليك على الحكم في بلاد الشام ومصر بعد الأيوبيين، وكانوا قد شاركوا الأيوبيين في كثير من المجالات، وعرفوا طبيعة البلاد من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية، ورأوا اهتمام الأيوبيين بالناحية العلمية فأسسوا المدارس والمساجد، والأبنية ذات النفع العام. وشاهدوا كيف تقربوا من العلماء وأن العامّة مع العلماء.

لذلك فقد تابعوا النهج السابق ولكن بتنظيم جديد في إدارة البلاد وحكمها والتوجه نحو العلم والتعليم وبناء المدارس، لذلك نجد أن أكبر عدد حظيت به دمشق من حيث عدد المدارس وظهور العدد الكبير من أعلام العلماء كان في العصر المملوكي.

لقد أطلق بعض الباحثين على هذا العصر اسم عصر الانحطاط، وَهُمْ بهذا الإطلاق قد جانبوا الحقيقة وابتعدوا عنها، ولا يجوز أبداً أن تكون الأحكام عامّة على كل المجالات، ولا قطعية في إثباتها, ويمكن أن نقول إن الأدب والشعر العربي قد تراجع وضعف، نعم ولكن هذا التراجع بدأ منذ سقوط بغداد على يد التتار.

أما بقية العلوم فالباحث يجد أن كثيراً من العلوم قد تقدَّم ونضج كعلوم القرآن على يد ابن الجزري والحديث على يد ابن حجر العسقلاني والفقه على يد السبكي وعلوم اللغة العربية على يد ابن حيان وابن هشام، وعلم الرجال والإسناد على يد المزي وابن ناصر الدين، والتاريخ على يد ابن طولون ويوسف بن عبد الهادي كما ذكرنا.

وظهرت الموسوعات الكبرى التي ضمت أصولاً وفروعاً كثيرة لكثير من العلوم، من هذه الموسوعات صُبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، ولسان العرب لابن منظور، والنجوم الزاهرة في التاريخ والتراجم لابن تغري بردى، ووفيات الأعيان لابن خلكان في التراجم، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري العدوي في التاريخ والجغرافية والأدب والكتابة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الديوانية والوثائق، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبي وغيرها من الموسوعات والمؤلفات كمؤلفات الإمام السيوطي التي ضمت في طياتها كتباً وأجزاء قد ضاع الكثير منها وبقيت ضمن هذه المؤلفات.

دراسة موجزة تاريخية عن المدارس بدمشق في أواخر العصر المملوكي:

لقد كان السلاطين والولاة والقضاة والتجار والأغنياء هم الذين يقومون بتأسيس المدارس والبيمارستانات والخوانق والزوايا والربط.

وكانت الواردات المالية للمدارس هي المورد الرئيسي لطلبة العلم والأيتام والمدرسين. وكان فعل الخير وطلب الثواب والأجر هو المقصد, لأن الإنفاق على العلم والتعليم من أفضل القربات إلى الله تعالى.

وكانت حلقات العلم موزعة في دمشق في ثلاثة أماكن: في الجامع الأموي حيث تعقد الحلقات العلمية الخاصة بكل علم، والحلقات العامّة الوعظية. وكانت تعقد أيضاً في المدارس كما هو مقرر لها في وقفياتها. وكان الطلبة يقصدون العلماء في بيوتهم أيضاً.

ففي الجامع الأموي تعقد الدروس وكان يعد أكبر مركز للحياة العلمية في تلك الفترة للمذاهب الأربعة وعلوم القرآن والحديث، وكان بالجامع الأموي حلقات علمية للفلك لتوقيت الصلوات والصوم، وكانت فيه ساعة فلكية من صنع ابن الشاطر وساعات شمسية أخرى.

أما المدارس فكان فيها بيوت للشيوخ وغرف للطلبة الكبار والصغار والأيتام، وفي كل مدرسة إيوان كبير ومسجد للصلاة وللتعليم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولمعرفة المدارس في تلك الفترة من حيث عددها ونوعية التدريس فيها وشيوخها ومن درّس فيها, يحسن الرجوع إلى مصدر كبير ضم وصفاً لكل مدرسة وبيّن موقعها وأحوالها. هذا الكتاب هو كتاب الدارس في تاريخ المدارس الذي ألفه عبد القادر النعيمي المتوفى سنة 927هـ/ 1521م والذي لخصه تلميذه المؤرخ الدمشقي محمد ابن طولون المتوفى سنة 953هـ/ 1546م.

وقد قسم كتابه إلى أنواع المدارس بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس الفقهية والصوفية والطبية وغيرها:

- فقد ذكر سبعاً من دور القرآن من أشهرها دار القرآن الجزرية التي أسسها وأوقفها شيخ القراء ابن الجزري المتوفى سنة 833هـ، ومن هذه الدور دار القرآن الخيضرية التي ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر.

- وذكر ست عشرة داراً للحديث الشريف من أشهرها دار الحديث النورية ودار الحديث الأشرفية وما زالتا قائمتين. وكان في الأولى الحافظ ابن عساكر وفي الثانية الإمام النووي والإمام السبكي.

- وهناك دور مشتركة لتعليم القرآن والحديث وكان عددها ثلاث دور.

- وكان الفقه يدرس في هذه المدارس على المذاهب الأربعة، وكان لكل مذهب مدارسه الخاصة به.

- وكان عدد مدارس الفقه الشافعي ثلاثاً وستين مدرسة من أشهرها العادلية الكبرى والبادرائية والشامية البرانية والجوانية.

- وللحنفية اثنتان وخمسون مدرسة منها المدرسة النورية والجوهرية والخاتونية.

- وللحنابلة إحدى عشرة مدرسة منها الجوزية والصدرية والعمرية.

وللمالكية أربع مدارس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكانت هذه المدارس تخرّج القضاة والفقهاء والأئمة والعلماء والمدرسين والكتّاب.

وإلى جانب ذلك كان بدمشق ثلاث مدارس للطب، وثلاثة بيمارستانات طبية وصيدلية، ومن أشهرها البيمارستان النوري الذي استمر عطاؤه حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

وكان بدمشق تسع وعشرون خانقاه للصوفية وعدد كبير من الربط والزوايا, ومن هذه الخوانق والرباطات ربط للنساء مثل الرباط الناصري في جبل قاسيون. وبالإضافة إلى ذلك كان بدمشق ثلاث مئة وأربعون مسجداً, وفي كل مدرسة إمام وقيم ومؤذن وطلبة ووافدون غرباء ومهاجرون عدا الطلبة من أهالي دمشق.

وهذه المدارس بالحقيقة من فضائل المماليك الذين حرصوا على نشر العلم وإنشاء المدارس وترسيخ العربية وآدابها عند الناس، وكان للعلماء في عصرهم المنزلة الكبيرة من التوقير والاحترام.

وكان للمدرسة نظام إداري متكامل ومنهج للمدرسين وللكتب التي تُقرأ بحيث يتعيَّن على المدرس الحضور في أوقات مخصوصة، وكذلك الطلاب، فكان يقوم بمراقبة الحضور كاتب يُسمى كاتبَ الغيبة.

وكان في المدرسة عدَّة أقسام للكبار والصغار والأيتام، بحيث يتعلم الصبي أولاً القرآن الكريم ويحفظه، ثم يتعلم الخط، وبعدها يتعلم الحديث الشريف ثم تأتي مرحلة تدريس الكتب الكبار للشباب، وكان بالمدرسة قسم لمبيت الأيتام وقسم لمبيت الطلاب المتفرغين لطلب العلم.

ويُلاحظ أن مناهج التعليم كانت تلتزم بحفظ المتون في علوم الفقه والحديث وغيرها ودواوين الشعر والمنظومات. وبذلك تبقى الأجيال تتابع المنهج نفسه دون تجديد أو تقدُّم. ويُلاحظ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ضعف في العلوم العامّة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب إلا ما كان يُساعد على فهم العلوم الدينية كالحساب للمواريث، والفلك لمعرفة مواقيت الصلاة والصوم والحج والطب للمداواة.

دراسة وقفية الأمير سيباي:

نعرض فيما يلي أنموذجاً من هذه المدارس في تلك الفترة وهي في آخر عصر المماليك، وهي المدرسة المعروفة بالسيبائية نسبة لمنشئها وواقفها الأمير سيباي التي بدأ بإنشائها سنة 915هـ/1509م وانتهى سنة 920هـ/1514م وذلك من خلال دراسة الوقفية لهذه المدرسة.

تحتفظ دائرة الأوقاف بدمشق بسجلات تتضمن الوقفيات وفيه هذه الوقفية وهي مسجلة برقم 6 صحيفة 16 بالسجل 1 وعليها توقيع لمدير أوقاف سورية وهي في 55 ورقة طول الورقة 35 سم وعرضها 25سم, كتبت بخط جميل واضح بالخط الديواني الفارسي الجميل.

ترجمة الواقف:

هو سيباي بن بخنجا آخر ولاة النواب المماليك بدمشق، وكان من مماليك الأشرف قايتباي فعيّنه نائباً لسيس، ثم تدرج في المناصب حتى وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في دولة المماليك، وهي رتبة مقدم ألف ثم أصبح نائباً (والياً) لحلب، وفيها تمرّد على السلطان قانصوه الغوري ثم ندم ودخل عليه مستسلماً فعفا عنه وعيّنه أمير سلاح بالقاهرة, ثم نقله لنيابة دمشق سنة 911هـ/1506م التي أمضى فيها ما ينوف على عشرة أعوام.

وفي مرج دابق سنة 922هـ/1516م هُزم المماليك وقُتل سلطانهم الغوري، ومعه نائب الشام سيباي، ولم يقبر بتربته التي أنشأها بدمشق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي دمشق قام سيباي بعدة أعمال وإنشاءات عمرانية ذات النفع العام.

ولعل أهم أعماله العمرانية وأخلدها والتي لا تزال ماثلة للعيان إلى اليوم مدرسته وتربته في منطقة باب الجابية جنوبي دمشق القديمة. ففي سنة 915هـ اشترى بعض الأوقاف غربي باب الجابية وشرع ببناء تربة فيها في جمادى الأولى سنة 919هـ/1513م, وبعد شهرين توفيت والدته فكانت أول من دفن فيها، فعزم أن يضيف إلى هذه التربة مدرسة وجامعاً بخطبة جمعة وزاوية للصوفية. وقد تكامل هذا البناء تقريباً في ربيع الأول سنة 920هـ/ 1514م, فدعا سيباي أعيان دمشق وقضاتها إلى حفل كبير قرئ فيه المولد الشريف وعَقد القضاة للنائب على معتوقته أم ابنتيه، ثم توفيت ابنته ستيتة فدفنت إلى جانب جدتها بالتربة المذكورة.

وأقيمت أول جمعة في مدرسته المذكورة يوم 17 شعبان سنة 920هـ/ 1514م. وفي أوائل سنة 922هـ/ 1516م قَرر في مدرسته ثلاثين صوفياً وشيخَ الشيوخ يشرف عليهم, وقرر فيه أيضاً عشرين يتيماً وشيخاً لهم، وعشرة من طلاب الفقه الحنفي وشيخاً لهم.

مضمون الوقفية:

بدأ منظمها بمقدمة فيها براعة استهلال في الترغيب بفعل الخير وخاصة الوقف واستشهد بالحديث الشريف: إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث وعدّ منها الصدقة الجارية. وذكر أن الواقف أشهر وأشهد ما أوقفه وهو في حال الصحة والسلامة. ثم بدأ يعدد ما أوقفه من جهات: من حوانيت وخانات ودور وحمامات وأراض ومزارع وقطع أراض وحقول وجنائن وأحواش, كما أوقف قريتين كاملتين واصفاً كل جهة بمكانها وما يحيط بها ومقدارها, وكان مجموع الجهات التي أوقفها 67 جهة وأكثرها بدمشق وما يحيط بها من قرى.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفي نص الوقفية تأكيد على حرمة تغيير الوقف أو تبديله، وهو وقف صحيح شرعاً محرمٌ لا يباع ولا يوهَب ولا يُستملك. وبدأ بالإشهار بوقف المدرسة للعلم والزاوية للذكر والتربة لدفن الموتى ممن يخصه.

صفات إمام الجامع وواجباته:

1) أن يكون حافظاً لكتاب الله.
2) من أهل الدين والخير.
3) يصلي بالجماعة الصلوات الخمس والتراويح في شهر رمضان.
4) يصرف له مئتا درهم في كل شهر من شهور الأهلة.

خطيب الجامع وواجباته:

1) يخطب الناس الجمعة والعيدين بشرط الأهلية.

المؤذنون:

1) عددهم تسعة في ثلاث نوب كل نوبة ثلاثة أنفار.
2) لكل مؤذن ستون درهماً.
3) كل نوبة منهم يؤذنون مجتمعين ويقيمون الصلوات الخمس وصلاة الجمعة بعد الإعلام لها والتذكير والتسبيح في أواخر الليل.

المؤقت:

1) أن يكون أميناً عالماً بالأوقات يؤقت الصلوات الخمس ويصرف له شهرياً مئة درهم.

الناظر:

عليه النظر بتقوى الله والذب عن الوقف وحفظ جهاته ورعايتها ورعاية فلاحيها.

شيخ الشيوخ:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

1) عليه الحضور في كل يوم بعد صلاة العصر مع اثنين وعشرين نفراً توزع عليهم الربعة ليختموا القرآن.

2) يصرف له مئتا درهم وخمسون درهماً شهرياً.

3) عُين الشيخ عبد القادر بن يونس الحنفي شيخاً للشيوخ بالمدرسة.

وظائف أخرى:

1) يصرف لاثني عشر قارئاً عشرون درهماً.

2) يصرف لنجل شيخ الشيوخ محمد خمسون درهماً.

3) يصرف لقاضي دمشق مئتا درهم وخمسون درهماً للإشراف على أوقاف المدرسة ومراقبة الأعمال فيها.

4) يصرف لنائب الناظر أبي بكر الرحبي في كل شهر ثلاث مئة درهم.

5) يصرف لثلاثة من أولاد القاضي في كل شهر مئة درهم وخمسون درهماً لكل واحد وذلك لخزن الكتب بالمدرسة.

6) يصرف لجابي أوقاف المدرسة مئتا درهم.

7) يصرف لكاتب الغيبة في كل شهر خمسون درهماً لإحصاء أعمال أرباب الوظائف وحضورهم وغيابهم.

8) ولموزع الربعة الشريفة أربعون درهماً شهرياً وكذلك للمبخر.

9) ولمرقي خطيب الجمعة ستون درهماً.

10) ويوقف لقراءة سورة الكهف يوم الجمعة لثلاثة أنفار لكل شخص خمسون درهماً شهرياً، وكذلك لقارئ قصيدة البردة.

11) يصرف لعالم في الفقه الحنفي ثلاث مئة درهم شهرياً.

12) يصرف لعشرة من الطلبة لدراسة فقه المذهب الحنفي ثلاث مئة درهم لكل طالب ثلاثون درهماً.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

13) يصرف لثلاثة علماء للحديث الشريف لقراءة السيرة النبوية وصحيح البخاري وصحيح مسلم مئة وثلاثون درهماً في كل شهر وذلك في شهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة ويكون تنظيمها كالتالي:

- السيرة النبوية لابن هشام: في نهاري السبت والثلاثاء بعد صلاة الظهر من كل أسبوع.
- صحيح البخاري: نهار الاثنين والخميس بعد صلاة الظهر.
- صحيح مسلم: في نهاري الأحد والأربعاء.

14) وقف قراءة القرآن: يقرأ حافظان في كل يوم بعد صلاة الظهر عدا يوم الجمعة فتكون القراءة قبل صلاة الجمعة.

15) وقف شيخ الزاوية بالمدرسة: يصرف له مئتا درهم وهو الشيخ سليمان الحسيني الرفاعي وعليه إقامة الذكر بالزاوية في كل ليلة جمعة وبعد صلاة الجمعة وبعد صلاة العصر من كل يوم.

16) يصرف ألف وخمس مئة درهم ثمن لحم وطبيخ يوزع على المقيمين بالمدرسة والزاوية والواردين.

17) يصرف للبواب تسعون درهماً شهرياً وستون درهماً للفراش وستون للشعال للقناديل.

18) يصرف لحافظ القرآن مؤدبِ الأيتام مئة درهم شهرياً.

19) يصرف لأربعة من حفظة القرآن يقرأون في كل يوم بالمدفن.

20) يصرف لوقف الأضاحي ثمن اثني عشر رأساً من الضأن.

21) يصرف لقراءة القرآن بالمسجد الحرام ست مئة درهم, ومئة وخمسون درهماً لخادم المصحف بالحرم المكي, وست مئة درهم لقراءة صحيح البخاري بالحرم المكي, وست مئة درهم لقراءة القرآن بالروضة الشريفة بالحرم المدني، وست مئة درهم لقراءة صحيح البخاري بالروضة الشريفة، وأربع مئة درهم لتوزيع الماء بالحرم المدني. ويصرف ثمن خمسة وسبعين رطلاً من الزيت للحرم المدني. ويصرف مئتا درهم في السنة لقراءة القرآن بالصخرة بالقدس الشريف, وألف درهم لقراءة صحيح البخاري بالمسجد الأقصى، وأربع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مئة درهم لأربعة أنفار حافظين للقرآن يقرأون بمسجد الخليل عليه السلام, وست مئة درهم لقراءة صحيح البخاري فيه.

22) يصرف ثمن مئة قميص من القماش وثمن مئة مداس (حذاء) توزع على الفقراء في طريق الحج.

23) يصرف من القمح اثنتان وستون غرارة للصوفية بالزاوية.

24) يصرف لعشرين يتيماً في المدرسة لكل منهم في كل يوم رغيف وللفقراء بالزاوية الاثنين والعشرين رغيفان.

وشرط الواقف على كل من أرباب الوظائف المعينة مباشرة وظيفته بنفسه وأن لا يستنيب إلا عند الضرورة.

وختم الوقفية بما يلي:

وقد تم هذا الوقف المبرور وكمل نظامه وألزمت شروطه واستقرت أحكامه، وأخرج الواقف ما وقفه عن ملكه وهو يستعدي إلى الله تعالى على من يقصد وقفه هذا بفساد أو يتطرق إليه بنقض وعناد ويخاصمه عليه يوم العرض على الله تعالى: ﴿ **فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾.

وأشهد الواقف على نفسه الزكية بجميع ما ذكر في هذه الوقفية في الرابع من جمادى الأولى المبارك الخامس من شهور عام اثنين وعشرين وتسع مئة.

استخلاص النتائج:

يستخلص ممّا تقدَّم أن الواقف قام بهذا العمل مرضاة لله في حب الخير، وجعل وقفه هذا مدرسة وزاوية لتعليم عشرين يتيماً وعشرة من طلبة الفقه الحنفي وإيواء ثلاثين صوفياً لكل منهم شيخه وأساتذته, كما أقام مجالس عدة لقراءة صحيح البخاري وصحيح مسلم، ومجالس لقراء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القرآن الكريم لقراءته. وأوقف كذلك أوقافاً خيرية تصرف من هذا الوقف إلى الحرم المكي والحرم المدني والقدس الشريف.

أرجو أن أكون قد وفقت في هذا العرض والله ولي التوفيق.

د. محمد مطيع الحافظ